

الإيمان بالله واليوم الآخر في القرآن الكريم



مِنْ أَصْلِ الْإِعْتِقَادِ إِلَى بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَاةِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادِ السَّلَامِيِّ

الإيمان بالله واليوم الآخر

من حقيقة الإيمان إلى بناء الإنسان في القرآن الكريم

تأليف: رداد السلامي

مقدمة منهجية

ليس هذا الكتاب جمعاً لمواضع عبارةٍ تكرر في القرآن، ولا تفسيراً مفرداً لآيات الإيمان باليوم الآخر، إنما هو محاولة لقراءة الصلة التي يعقدها القرآن بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، وهي صلة تكشف أثر العقيدة في حياة الإنسان: كيف يرى، وكيف يختار، وكيف يعامل الناس، وكيف يتصرف حين يغيب عنه الرقيب البشري، وحين تشتد عليه دواعي المصلحة أو الهوى.

نبدأ من سورة البقرة، متبعين ترتيب المصحف؛ فالبدء بها ترتيباً في القراءة، لا دعوى بأنها أول ما نزل من آيات هذا الموضوع. ونتبع المواضع التي يرد فيها الإيمان بالله واليوم الآخر صريحاً، ثم نضم إليها، في موضعها المناسب، آياتٍ تلتقي معها في المعنى، كأن تقرن عبادة الله برجاء اليوم الآخر، أو تجعل الاقتداء سبيلاً لمن يرجو الله واليوم الآخر. وسنحرص على التمييز بين اللفظ القرآني الصريح وبين الدلالة التي نستنبطها من السياق، حتى لا تختلط الآية بتأملنا فيها.

وسنقرأ كل موضع في سياقه ونظمه: ما الذي قبله؟ وما الذي بعده؟ وما العمل أو الموقف الذي جاء الإيمان بالله واليوم الآخر ليوقظه في النفس؟ فليس المقصود أن نلحق كل آية بفكرة سابقة، بل أن نصغي إلى الآية في مكانها، ثم نرى كيف تتآلف مع أخواتها في بناء السورة والقرآن.

تنبّها سورة البقرة، منذ مطلعها، إلى أن الإيمان ليس دعوى تُقال ثم يُستغنى بها عن حقيقتها؛ إنه تصديق يتصل بالعمل، ويترك أثره في المال والأسرة والعبادة والعدل. وفي هذه السورة وحدها تتوزع الإشارة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر على مقامات شتى: من كشف دعوى المنافقين، إلى وصف البر، إلى الإنفاق، إلى حقوق الأسرة. وهذا التوزع نفسه جدير بالتأمل: فكأن الإيمان الذي يبدو في أول الأمر حقيقةً غيبيةً باطنة، لا يلبث أن يظهر في تفاصيل الحياة التي يراها الناس.

الفصل الأول

سورة البقرة: حين ينزل الإيمان إلى تفاصيل الحياة

1. دعوى الإيمان وامتحان الحقيقة

تبدأ صلة الإيمان بالله واليوم الآخر في سورة البقرة في مشهدٍ كاشف، لا في مقام الثناء. يقول تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾
[البقرة: 8]

تضع الآية بين أيدينا قولاً يشتمل على أصلين عظيمين: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر؛ ثم تكشف أن العبارة، على جلال معناها، لا تكفي وحدها لتكون دليلاً على صدق صاحبها. فقد يخرج القول من اللسان، ويبقى القلب بعيداً عن حقيقته. وليس الخطر في إعلان الإيمان، بل في أن تتحول ألفاظه إلى ستارٍ يخفي وراءه نقيضه.

واختيار الإيمان بالله واليوم الآخر هنا ذو دلالة؛ فهما يجمعان طرفي حياة المؤمن: مرجعه الأعلى الذي يتوجه إليه، ومصيره الذي يقف بين يديه. من يؤمن بالله حقاً يعلم أنه ليس مستقلاً عن أمره، ومن يؤمن باليوم الآخر يعلم أن ما يخفى على الناس لا يخفى عند الحساب. لكن المنافق يريد للقول أن يمنحه منزلته بين المؤمنين، من غير أن يحمل نفسه على مقتضاه؛ يريد ثمرته الاجتماعية، ويتفادى تكاليفه الأخلاقية.

ومن هنا تضع الآية أساساً مهماً لقراءة سائر المواضع: القرآن لا يعامل الإيمان بوصفه جملةً نظرية معزولة عن الإنسان، بل يكشف صدقه أو زيفه من خلال أثره في القلب والعمل. وليس معنى ذلك أن كل خطأ أو معصية تنفي أصل الإيمان؛ فالنص هنا يتحدث عن نفاقٍ يضمّر خلاف ما يظهر. وإنما المعنى أن العبارة الدينية لا تعصم صاحبها من انكشاف حقيقته، وأن الإيمان المعلن لا يغني عن الصدق.

هكذا يبدأ الطريق في سورة البقرة من سؤالٍ لا يفارق الكتاب كله: ماذا يصنع الإيمان بالإنسان؟ وهل يبقى شعاراً يعلنه، أم يتحول إلى حقيقة تضبط نظره واختياره؟

2. الإيمان معيارٌ يتجاوز الانتساب

ثم تأتي الآية التي تذكر أهل الملل، وتصل النجاة بالإيمان والعمل الصالح، لا بمجرد الاسم الذي ينتسب إليه الإنسان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
[البقرة: 62]

ترد الآية في سياق حديث السورة عن بني إسرائيل وما وقع من أحوالهم، فتقطع الطريق على الاتكال على الاسم وحده. فالانتساب، مهما علت دلالاته التاريخية أو الدينية، لا يغني عن حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر، ولا عن العمل الصالح. والنجاة التي تصفها الآية ليست جائزةً يحصل عليها المرء لمجرد انتمائه إلى جماعة؛ إنها متصلة بإيمانٍ يصدق به القلب، وعملٍ يشهد له السلوك.

وهنا ينبغي ألا تُعزل الآية عن سياقها، ولا أن تُحمل ما لا تقوله. فهي لا تجعل الحقائق العقدية سواء، ولا تقول إن اختلاف الرسالات والشرائع لا أثر له؛ لكنها تقرر أن أسماء الجماعات لا تُنجي أصحابها من الحساب، وأن ميزان الله ليس دعوى الانتساب. فالقرآن يردّ الإنسان إلى السؤال الأعمق: ماذا آمنت؟ وكيف عملت؟ وإلى أي ربّ تتوجه؟ وأي يومٍ تنتظر؟

واللافت أن الإيمان باليوم الآخر يجيء في الآية متصلاً بالأجر والأمن من الخوف والحزن. إنه يفتح للحاضر أفقاً لا تراه العين وحدها: قد ينقص الإنسان في الدنيا، أو يظلم، أو تضيق عليه سبلها، لكنه لا يُختصر في لحظة عابرة، ولا تُغلق حياته عند ما أدركه فيها. وراء مشهد الدنيا حسابٌ وعدلٌ وأجر، وبذلك يصبح الإيمان بالآخرة مصدر رجاء لا يلغى به العمل، بل يُبعث به.

3. الإيمان في دعاء إبراهيم: الرزق والأمن

وفي دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة، يتصل الإيمان بالله واليوم الآخر بحياة الناس وأرزاقهم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

[البقرة: 126]

إنه دعاء نبيٍّ لبلدٍ وأهله: أمنٌ يحفظ الحياة، ورزقٌ يقيمها. وفي قلب هذا الدعاء يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فلا تبدو العقيدة هنا شأنًا ذهنيًا منفصلاً عن حاجات البشر، بل تظهر في دعاءٍ يتجه إلى أمنهم ومعاشهم. فالمؤمن لا يتأمل الآخرة هروباً من الأرض، وإنما يسأل الله صلاح الحياة فيها، وهو يعلم أنها ليست الدار الأخيرة.

ويجتمع في الآفة ما قد يظنه بعض الناس متباعداً: الإيمان بالغيب، والأمن في المدينة، والثمرات في الأسواق والبيوت. غير أن القرآن لا يفصل هذه المعاني بعضها عن بعض. فالحياة الطيبة ليست عدواً للآخرة، والرزق ليس مناقضاً للإيمان، ما دام القلب يعرف المنعم، والعمل يجري في طاعته، والإنسان لا يجعل العاجل غايته الوحيدة.

وفي صيغة الدعاء نلمح رحمة إبراهيم عليه السلام واتساع نظره: يسأل لأهل البلد الأمن والرزق، ثم يذكر المؤمنين منهم بالإيمان بالله واليوم الآخر. فالنعمة تُطلب، لكنها لا تنفصل عن المسؤولية؛ والرزق عطيةٌ من الله، والإيمان يذكر صاحبه بأن العطية أمانة، وأن وراءها يوماً يُسأل فيه الإنسان عما نال وما صنع.

4. البرّ: من حقيقة الاعتقاد إلى أخلاق اليد والقلب

ثم تبلغ السورة ذروةً جامعةً في بيان البرّ، فنتنقل من رسم ملامح الإيمان إلى تفصيل آثاره:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

[البقرة: 177]

تفتح الآية نفيًا يحرر معنى البر من أن يُحتزل في مظهرٍ واحد، ثم تقيم مكانه بناءً متكاملًا: إيمان بالغيب، وبذلٌ للمال، وإقامةٌ للصلاة، وإيتاءٌ للزكاة، ووفاءٌ بالعهد، وصبرٌ في الشدائد. ليست العبادة في هذا البناء حركةً منفصلةً عن الأخلاق، ولا الاعتقاد فكرةً لا تمس حياة الفقير واليتيم وابن السبيل؛ إنما البر حقيقةٌ تتوزع على القلب واليد واللسان، وعلى حق الله وحق الناس.

ويجيء الإيمان بالله واليوم الآخر في مقدمة هذه الصفات، لا ليبقى مقدمةً لفظية، بل لينح ما بعدها معناه واتجاهه. فالإيمان بالله يحرر العطاء من الشعور بأن المال ملكٌ مستقل للإنسان، والإيمان باليوم الآخر يذكّره بأن ما ينفقه في مواضعه محفوظٌ عند الله، وأن ما يمسكه عن مستحقه قد يكون موضع سؤال. ثم تمضي الآية من الاعتقاد إلى المال الذي يُحبه صاحبه، ومن الصلاة إلى العهد الذي يقطعه، ومن السعة إلى البأساء والضراء وحين البأس.

وهنا يكشف القرآن أن صدق الإيمان لا يظهر في اللحظات الميسرة وحدها. فالوفاء بالعهد يحتاج إلى ثبات حين تتغير المصالح، والإنفاق يختبر المرء في الشيء الذي تحبه نفسه، والصبر يُمتحن حين يضيق الطريق. لذلك تختم الآية بوصف هؤلاء بالصدق والتقوى: كأن كل تلك الأعمال شواهد متضافرة على حقيقة واحدة، هي أن الإيمان لم يبق في مقام القول، بل صار هيئةً للحياة.

5. رقابة الغيب في أخصّ شؤون الأسرة

وفي موضع آخر من السورة، تنقلنا الآية من مشهد البرّ الواسع إلى شأنٍ خاص داخل الأسرة، فتجعل الإيمان بالله واليوم الآخر رادعاً عن كتمان الحقيقة:

﴿وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾

[البقرة: 228]

الآية في سياق أحكام المطلقات والعدّة، حيث قد نتصل معرفة ما في الرحم
بآثار شرعية وحقوق أسرية. وهي تخاطب لحظة قد لا يكون فيها شاهدٌ حاضر،
ولا رقيبٌ قادر على التحقق من كل ما يُقال أو يُكتم. لذلك تستحضر الإيمان
بالله واليوم الآخر: الله يعلم ما خفي، واليوم الآخر يكشف أن الخصومات التي
مرّت بلا شاهدٍ بشري لا تضيع عن علمه وعدله.

إن القرآن لا يكتفي بوضع قواعدٍ خارج الإنسان، مع حاجتها وضرورتها، بل
يبني في داخله رقيباً يردعه حين لا تستطيع الأنظمة أن تبلغ الخفاء. فحفظ الحقوق
يحتاج إلى القانون، لكنه يحتاج أيضاً إلى ضمير يؤمن بأن الكذب لا يصير حقاً
لمجرد تعدّد كشفه، وأن كتمان الحقيقة ليس حيلةً عابرة، بل فعلٌ يُعرض على
الله.

وتبلغ الآية هذا المعنى في موضع شديد الخصوصية: لا في ساحة القضاء العام
فحسب، بل في معرفة المرأة بما في رحمها. وهكذا يدخل الإيمان إلى موضعٍ دقيق
من حياة الأسرة، فيصون حقاً قد يتأثر به الزوجان والولد، ويجعل أمانة الخبر
جزءاً من أمانة الدين.

6. ألا يتحول الولي إلى حاجز أمام الإصلاح

ثم يأتي الإيمان بالله واليوم الآخر في سياق حماية المرأة من أن تمتنع من زواج رضية به على وجه مشروع، بعد انتهاء علاقتها الزوجية السابقة:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَاطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: 232]

تضع الآية حداً لعزل النساء ومنعهن من نكاح تراضى عليه الطرفان بالمعروف. ويخاطب الأمر الأولياء والمحيطين بالمرأة، ثم يأتي التذكير بالإيمان بالله واليوم الآخر في موضعه: حيث يمكن أن تتدخل العاطفة أو الخصومة أو الرغبة في التحكم، فيحمل الإنسان على تعطيل حق أباحه الله.

إن الإيمان باليوم الآخر يغير معنى السلطة داخل الأسرة. فالولي ليس مالكا لمصير المرأة، والقرب لا يمنح صاحبه حقاً في الإضرار بها، ومشاعر الغضب أو الرغبة في الانتقام لا تتحول إلى حكم شرعي. وراء القرار العائلي حساب، والله يعلم ما قد يخفى على الناس من دوافعهم ومصالحهم. ولهذا تختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فتضع علم الله فوق تقديرات البشر، وتذكّرهم أن ما يرونه مصلحة قد لا يكون كذلك.

ومن دقة التعبير أن الآية تصف هذا التوجيه بأنه أزكى وأطهر. فترك العضل ليس مجرد امتثالٍ لحكمٍ ظاهري، بل تزكيةٌ للعلاقات من الظلم، وتطهيرٌ للأسرة من أن تتحول فيها الولاية إلى أداة قهر. وهنا يتجلى أثر الإيمان في الحياة الخاصة: أن يتواضع الإنسان أمام حكم الله، وألا يجعل هواه الشخصي ميزاناً لحقوق غيره.

7. الإنفاق الذي يطلب وجه الله، والإنفاق الذي يطلب أعين الناس

وفي ختام مواضع هذا الموضوع في سورة البقرة، يأتي التحذير من إنفاقٍ يبدو في ظاهره إحساناً، لكنه يفسد حين يُبنى على الرياء والمن والأذى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فُتِلَهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

[البقرة: 264]

الصورة التي تختم بها الآية تفضح المسافة بين ما يبدو وما يكون: صخرةٌ عليها شيءٌ من التراب، يظن الناظر أن فيها قابليةً للإنبات، ثم ينزل المطر فيكشف صلابتها العارية. كذلك العمل الذي يراه الناس صدقةً، لكنه يطلب مدحهم أو يتبعه صاحبه بالمن والأذى؛ صورته الظاهرة تحمل أثر العطاء، أما باطنه فلا يملك الأرض التي تُنبت فيها الحسنات.

ويعود الإيمان بالله واليوم الآخر هنا بوصفه فارقاً بين وجهةٍ ووجهة: من يعمل لله ولما عند الله، ومن يجعل أعين الناس غايته. فالإيمان بالله يوجه القصد إلى من لا تخفى عليه السرائر، والإيمان باليوم الآخر يجعل الجزاء الحقيقي أبعد من التصفيق والثناء العاجل. وما أسرع أن يذبل العمل حين يربط صاحبه قيمته بما يسمعه من الناس؛ وما أثبتته حين يُقصد به الله، ويُصان من التعبير والإيذاء.

ولا تقف الآية عند ذم الرياء، بل تصل النية بطريقة معاملة المحتاج. فالصدقة قد تُبطل بالمنّ والأذى، أي إن فسادها لا يأتي من قصدٍ فاسدٍ وحده، بل قد يأتي بعد البذل حين يجعل المعطي إحسانه قيداً على من أعطاه. وهكذا يحفظ الإيمان كرامة الآخذ، كما يهذب قلب المعطي.

خلاصة المحطة: الإيمان الذي يشهد له السلوك

في سورة البقرة، لا يظهر الإيمان بالله واليوم الآخر معنىً واحداً في موضع واحد؛ بل يتحرك بين أحوال الإنسان: يفضح دعوى المنافق، ويردّ الانتساب إلى حقيقة الإيمان والعمل، ويجاور دعاء الرزق والأمن، ويدخل في تعريف البرّ، ثم يحرس الصديق في شؤون الأسرة، ويحمي المرأة من العضل، وينقي الإنفاق من الرياء والمنّ والأذى.

ومن هذا التوزع نقرأ دلالةً مركّبة: الإيمان بالغيب ليس انسحاباً من الحياة، بل حضوراً أصدق فيها. فكما استقر في القلب أن الله يراه، وأن إليه المصير، ازداد الإنسان مسؤوليةً عن قوله وماله وعهده وحقوق من حوله. لا تنتهي الآخرة عند مشهد الحساب؛ إنها تبدأ أثراً في الدنيا، حين تمنع يداً من الظلم، وتفتح يداً للعطاء، وتحرس لساناً من الكذب، وتردّ صاحب سلطةٍ إلى حدود ما أذن الله به.

وفي الفصل التالي ننتقل إلى آل عمران، حيث تقترن هذه الصلة بالإيمان والعمل العام: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والمصارعة إلى الخيرات.

الفصل الثاني

آل عمران: الإيمان الذي يسري من المحراب إلى المجتمع

لا تترك سورة آل عمران الحديث عن أهل الكتاب عند التعميم. فبعد أن تذكر ما كان من فريقٍ منهم، وما ترتب على موافقهم، تقيم حاجزاً واضحاً أمام أن تتحول المؤاخذة إلى حكمٍ يشمل الجميع، فتقول:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

[آل عمران: 113]

تبدأ الآية بنفي التسوية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. وهذه الكلمة القصيرة تمنع الذهن من الانزلاق إلى حكمٍ جماعيٍّ يطمس الفروق بين الناس. فليس كل من جمعه اسمٌ واحد متطابقاً في موقفه وعمله؛ فيهم من يختار طريقاً، وفيهم من يتجه إلى طريق آخر. وقد فسّر الطبري الآيات في هذا السياق على أنها تفصيلٌ لحال الفريقين، المؤمن منهم والفاسق، ثم ذكر صفات الجماعة القائمة التي أثنى الله عليها.

ثم لا تكتفي الآية بإثبات وجود أمة مختلفة، بل تصفها بما تقوم به: ﴿أُمَّة قَائِمَةٌ﴾. في هذا الوصف معنى الاستقامة والثبات والقيام بأمر الله؛ أناس لم يتركوا الحق الذي عرفوه، ولم يجعلوا معرفتهم ذكرى ساكنة، بل قاموا بمقتضاها. وبعد ذلك تنقلنا الآية إلى مشهدهم في الليل: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

إنه مشهد بعيد عن أعين الناس، يجري في ساعات تخفّ فيها الحركة ويهدأ فيها ضجيج النهار. هناك، حيث لا يصفق جمهور، ولا تطلب منزلة، يتلون آيات الله ويسجدون له. وكأن السورة تهى القارئ لفهم الإيمان الذي ستصرّح به في الآية التالية: إنه إيمان له صلة بالخلوة كما له صلة بالحياة العامة؛ يربي القلب في محرابه، ثم يبعثه إلى واجباته بين الناس.

ثم تأتي الآية الجامعة:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾
[آل عمران: 114]

يضع القرآن الإيمان بالله واليوم الآخر في صدر الصفات، ثم يصل به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارة في الخيرات. ليست هذه أوصافاً متفرقة اجتمعت مصادفة؛ إنما هي ملامح شخصية واحدة: قلب يعرف ربه ويؤمن بالوقوف بين يديه، ولسان لا يرضى أن يستقر المعروف غائباً والمنكر مستعلاً، ونفس لا تؤجل الخير كلما لاح لها سبيله.

ويظهر هنا أثر الإيمان باليوم الآخر في معنى المبادرة. فمن يرى الدنيا نهاية الطريق قد يؤخر الخير حتى يفرغ، أو حتى تيسر له الظروف، أو حتى يضمن أن جهده سيعود عليه بنفع قريب. أما من يوقن أن وراء العمل يوماً تُوفى فيه الحقوق، فإنه لا يزن الخير بعاجل مردوده وحده؛ يعرف أن ما يقدمه لله محفوظ، وأن الوقت الذي يملك فيه الفعل فرصة لا ينبغي أن يضيعها.

ولذلك لم تقل الآية إنهم يفعلون الخيرات فحسب، بل قالت: ﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾. في المسارعة يقظة للفرصة، ورغبة في السبق، وخروج من التردد الذي يسرق من الإنسان كثيراً من أبواب البر. إنهم لا ينتظرون أن يدفعوا إلى الخير دفعاً؛ بل يطلبونه، ويبادرون إليه، كأنهم يرون في كل عمل صالح خطوةً تقربهم من رضوان الله.

ويجمع هذا الوصف بين إصلاح النفس وإصلاح ما حولها. فتلاوة الآيات والسجود يربيان الصلة بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يخرجان أثر الإيمان إلى المجال العام. ولا يكفي المرء أن يطلب صلاح نفسه ثم يعتاد رؤية الفساد من حوله كأنه لا يعنيه؛ كما لا يستقيم أن يتصدر لإصلاح الناس وقلبه خالٍ من العبادة التي تزكي قصده وتضبطه. في الآيات حركة من الليل إلى النهار، ومن السجود إلى العمل، ومن تلقي الوحي إلى حمل مسؤوليته.

ثم تختم الآية بقولها: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. الصلاح هنا ليس لقباً ينتزعه الإنسان لنفسه، ولا وصفاً يكتسبه بمجرد الانتساب، بل ثمرة صفات اجتمعت: إيمان، وعبادة، ومسؤولية، ومسارةٌ إلى الخير. وقد أشار بعض المفسرين إلى أن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحمل صاحبه على طلب ما ينفعه في ذلك اليوم، وترك ما يضره؛ فتغدو العقيدة باعثاً للعمل لا معلومةً ساكنة في الذهن.

خيرٌ لا يضيع عند الله

ونتصل الآيتان بما بعدهما اتصال طمأنةٍ ووعد:

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ^ق وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: 115]

بعد وصف الأعمال، يأتي ضمان ألا يضيع شيءٌ منها. فالخير قد يخفى على الناس، وقد لا يجد صاحبه من يشكره عليه، وقد يمر في الدنيا دون أن يترك أثراً ظاهراً يُشار إليه؛ لكنه لا يضيع عند الله. وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ معناه أن خيرهم لن يُحرموا جزاءه ولن يُجحد لهم، والله عليمٌ بأعمال المتقين ونياتهم.

وهنا تلتقي الآية باليوم الآخر من جهة الرجاء: ما يصنعه المؤمن في الدنيا لا تختصر قيمته في ما يظهر منه الآن. قد لا يرى صاحب الخير ثمرة عمله كاملةً، وقد ينقطع أثره في أعين الناس، لكن علم الله لا يخطئه، وجزاؤه لا يخضع لتقلب أحوال البشر. إن الإيمان بالآخرة يحرر العامل من الارتهان إلى الاعتراف العاجل؛ فهو يعمل لأن الخير حق، ولأن الله يعلمه، ولأن ما عند الله أبقي.

والتعبير ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ يردّ الأعمال إلى باطنها أيضاً. فليست العبرة بكثرتها وحدها، بل بما قام في القلب من تقوى وإخلاص. والله يعلم العمل الذي لم يره الناس، والنية التي لم يطلعوا عليها، والتعب الذي لم يقدّروه. وهذا العلم ليس مراقبةً مجردة؛ إنه أساس عدلٍ لا يُنقص صاحبه حقّه، ورحمةٍ تحفظ له خيره ولو غفل عنه الخلق.

خلاصة المحطة: المؤمن لا يعمم الظلم، ولا يؤجل الخير

تكشف آيات آل عمران عن وجه آخر للصلة بين الإيمان بالله واليوم الآخر. ففي البقرة نزل الإيمان إلى برّ الإنسان وماله وحقوق أسرته؛ وهنا نراه يكون جماعةً قائمة، متعبدةً في الليل، مسؤولةً في النهار، مسارعةً إلى الخير، مطمئنةً إلى أن جهدها محفوظ عند الله.

وتبدأ المحطة بكلمة تُعَلِّمُ العدل في النظر إلى الناس: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. ثم تصف الإيمان بما يصنعه في صاحبه، وتنتهي بتطمينه أن عمل الخير لا يُجحد. وبين البداية والنهاية يظهر ميزان السورة: لا تظلم الناس بالتعميم، ولا تترك الخير يفوتك بالتسويق، ولا تجعل غياب الشكر البشري دليلاً على ضياع العمل؛ فالله يعلمه، وإليه مرجع الجزاء.

ومن آل عمران ننتقل إلى سورة النساء، حيث يصحبنا الإيمان بالله واليوم الآخر إلى مواضع أشد احتكاكاً بحركة المجتمع: الإنفاق، والتحاكم، والطاعة، والتميز بين ظاهر العمل وحقيقته.

الفصل الثالث

النساء: الإيمان ميزاناً للمال والحكم والعلم

في سورة النساء، لا يأتي الإيمان بالله واليوم الآخر منعزلاً عن أحوال المجتمع؛ بل يظهر في مواضع يتعرض فيها الإنسان لامتحان المصلحة والسلطة والخصومة. هنا يُختبر الإيمان في المال الذي يُنفق طلباً للثناء، وفي النزاع الذي يحتاج إلى مرجع يُحتكم إليه، وفي الاستجابة لما أنزل الله، ثم في صورة أهل العلم الذين جمعوا المعرفة بالعبادة والعمل.

1. مالٌ يطلب أعين الناس

يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾

[النساء: 38]

تضع الآية إنفاق المال في موضع امتحان النية. فالإنفاق في ظاهره بذلٌ، لكنه قد يُساق إلى الناس طلباً لمحمدتهم، لا ابتغاء ما عند الله. وعندئذٍ يتقلب العطاء من عبادةٍ إلى استعراض، ويصبح الفقير حاضراً في المشهد بقدر ما يتيح للمعطي أن يرى ويمدح.

وتقرن الآية هذا الرياء بغياب الإيمان بالله واليوم الآخر. فمن لا يستحضر نظر الله إليه، ولا يوقن بالجزاء بعد الموت، يسهل عليه أن يجعل نظرة الناس ميزان عمله: يعطي حين يراه الناس، ويمنع حين يغيبون، ويهتم بالصورة التي تبلغهم أكثر من الحقيقة التي يعلمها الله. وقد فسّر الطبري هذا الإنفاق بأنه إنفاقٌ مراعاةً للناس، وربط نفي الإيمان بالتكذيب بالبعث والجزاء.

ثم تأتي الآية التالية بسؤالٍ يكاد يوقظ صاحبه من غفلته:

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾

[النساء: 39]

ما الذي يخسرونه لو آمنوا حقًا، وأنفقوا مما رزقهم الله؟ في السؤال كشفٌ لخسارة لا تبدو في ظاهرها خسارة: إنهم يطلبون حمد الناس، ويتركون أجر الله؛ يفتشون عن ذكرٍ قريبٍ زائل، ويعرضون عن جزاءٍ باقٍ. ثم تختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾؛ فالله يعلم حقيقة الإنفاق، وما استقر خلفه من قصد. لا تخدعه الصورة، ولا يحجبه عن العمل أن صاحبه أتقن إظهاره للناس.

ليس في هذا ذمٌ للإنفاق الذي يراه الناس، ولا دعوةٌ إلى إخفاء كل عطاء؛ إنما موضع النظر هو القلب الذي يريد بالعطاء مكانةً عند الخلق، ويغفل عن المنعم وعن يوم الجزاء. فالإيمان لا يغيّر مقدار ما يخرج من اليد فحسب؛ إنه يحرر العطاء من عبودية السمعة.

2. عند النزاع: إلى أين يردّ المؤمنون أمرهم؟

ثم تنقلنا السورة من شأن القصد الفردي إلى شأن الجماعة حين تختلف وتنزاع:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

[النساء: 59]

حين يقع النزاع، يتنازع الناس على القرار، وعلى تفسير الوقائع، وعلى حق الطاعة وحدودها. والآية لا تجعل الإيمان شعاراً فوق هذا المشهد؛ بل تجعله حاضراً في طريقة حسمه: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. أي لا تتركوا الخصومة رهينة القوة أو الهوى أو المصالح المتقلبة؛ اطلبوا حكم الله، وارجعوا إلى رسوله، وإلى سنته بعد وفاته.

ويبدأ ترتيب الطاعة بطاعة الله ورسوله، ثم يذكر أولي الأمر؛ أما عند التنازع، فيُردّ الأمر إلى الله والرسول. وهذا الترتيب يرسم حدوداً ينبغي ألا تُمَحَى: لا تُجعل طاعة البشر فوق طاعة الله، ولا يُترك المرجع الذي يردّ إليه المختلفون. وقد فسّر الطبري الردّ إلى الله بالرجوع إلى كتابه، وإلى الرسول في حياته، وإلى سنته بعد وفاته، وربط ذلك بالإيمان بالمعاد والثواب والعقاب.

وتجتمع في خاتمة الآية عبارتان: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. فالرجوع إلى الوحي خير في ذاته، وأحسن مآلاً فيما تؤول إليه عاقبة النزاع. وقد يظن بعض المتخاصمين أن الغلبة العاجلة هي أحسن النتائج، لكن الإيمان باليوم الآخر يوسع معنى النتيجة: ليس الخير أن يكسب المرء الجولة بأي وسيلة، بل أن يصل إلى حكم لا يندم عليه حين تكشف السرائر وتردّ الحقوق.

هنا يغدو الإيمان بالله واليوم الآخر أساساً للعدل في الاجتماع: الله هو الحكم الأعلى، والآخرة هي الأفق الذي لا تنتهي عنده الخصومات إذا عجز الناس عن إنصاف بعضهم في الدنيا.

3. إيمان لا يقبل التجزئة

وتقول السورة في موضع آخر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

[النساء: 136]

يخاطب القرآن الذين آمنوا بقوله: ﴿آمِنُوا﴾؛ وهو نداء يوقظهم إلى لزوم الإيمان والثبات عليه واستكمال مقتضاه. فالإيمان ليس لحظة يعبرها الإنسان ثم يضعها خلفه؛ إنه عهد يتجدد، وطريق يقتضي قبول ما أنزل الله على رسوله وما أنزله من قبل، والإيمان برسله وملائكته واليوم الآخر.

وتحذر الآية من أن يؤخذ الإيمان مجزأً: يؤمن الإنسان بما يوافق هواه، ويكفر بما يطالبه بتغيير موقفه أو اتباع الحق. فالإيمان باليوم الآخر يأتي ضمن منظومة مترابطة، والكفر بأصلٍ من أصولها يخلّ بهذا البناء كله. وقد عرض الطبري سياق الآية في خطاب من آمن ببعض الكتب أو الرسل دون بعض، مبيناً أن التصديق بما أنزل الله يستلزم ألا يُردّ الرسول الذي جاء مصداقاً لما بين يديه.

وفي ذكر اليوم الآخر ضمن هذه الأصول تذكيرٌ بأن المعرفة الدينية ليست تراثاً يُنتقى منه ما يرضي الإنسان، بل حقائق متصلة بمصدرها ومآلها. ومن آمن بأن الله يحاسبه، لم يجعل هواه هو الذي يحدد أي حقيقة يقبل وأي حقيقة يترك.

4. العلم الذي يورث عملاً

وقبل ختام السورة، تذكر آية أهل الرسوخ والإيمان، وتصف ما اجتمع لهم من الاعتقاد والعمل:

﴿لَكِنَّ الرَّاٰخِثُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء: 162]

تبدأ الآية بالرسوخ في العلم، ثم تصل به الإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله، ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم الإيمان بالله واليوم الآخر. فلا يقف العلم عند معرفة لا تغير وجهة صاحبها، ولا تنفصل العقيدة عن عبادة الجوارح وحقوق الناس.

والصلاة والزكاة هنا ليستا تفصيلين عارضين؛ إنهما شاهدان على أن الإيمان يتحول إلى صلبة قائمة بالله، وإلى حقٍّ يؤدي للناس. ثم يأتي الوعد: ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وكأن الآية ترد العلم والعمل إلى أفقهما الأخير: الأجر عند الله، والجزاء الذي لا تحده مقاييس الدنيا. وقد فسر الطبري وصف الراسخين والمؤمنين في هذا الموضع في سياق بيان أن أهل الكتاب ليسوا سواء، وأن منهم من رسخ في العلم وآمن بما أنزل على النبي وما أنزل من قبله.

خلاصة المحطة: الإيمان يضبط النية والسلطة والمعرفة

تتحرك الصلة بين الإيمان بالله واليوم الآخر في سورة النساء عبر ميادين متباعدة في ظاهرها، متحدة في اختبارها للإنسان: مالٌ قد يُبذل للرياء، ونزاعٌ قد يُحسم بالهوى، ومعرفةٌ قد تُجزأ بحسب المصلحة، وعلمٌ لا تكتمل ثمرته إلا إذا أورش عبادةً وعملاً.

في كل موضع، يعيد الإيمان توجيه الإنسان إلى ما وراء المنفعة العاجلة: لا تجعل الناس غايتك، ولا تجعل القوة حكماً، ولا تنتقِ من الحق ما يلائم رغبتك، ولا تفصل العلم عن العمل. الله يعلم، واليوم الآخر آتٍ، وما يصنعه المرء في الخفاء والعلن سيجد أثره في المال.

ومن النساء ننتقل إلى المائدة، حيث يرد الإيمان بالله واليوم الآخر في سياق الوعد بالأمن والجزاء، مقروناً بالعمل الصالح.

الفصل الرابع

المائدة: الوعد الذي لا ينفصل عن الإيمان والعمل

تجيء آية المائدة في سياقٍ يوجّه الكلام إلى أهل الكتاب، ويصل بين ما أنزل إليهم وما أنزله الله على رسوله. وقبل أن تذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، تقول السورة:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
[المائدة: 68]

ليس المقصود بإقامة الكتاب ادعاء الانتساب إليه، بل القيام بما جاء فيه من حَقِّ والعمل به. وفي تفسير الطبري أن الآية تتناول إقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والإيمان بما جاء به وعدم التفريق بين رسل الله.

ثم تعقبها الآية التي نقرأ فيها اقتران الإيمان بالله واليوم الآخر بالعمل الصالح والوعد بالأمن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[المائدة: 69]

يبدأ ذكر الطوائف بأسمائها، ثم تنقلنا الآية إلى الميزان الذي لا يقف عند الاسم: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾. فالأسماء وحدها لا تنهض مقام الإيمان، والانتساب لا يقوم مقام العمل؛ إنما يتجه الوعد إلى إيمانٍ حقيقيٍّ بالله واليوم الآخر، يصدّقه العمل الصالح.

لكن الآية لا تُقرأ بمعزلٍ عن سياقها السابق. فقد دعت الآية 68 إلى إقامة ما أنزل الله، بما في ذلك ما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك لا يصح أن تُحوّل الآية 69 إلى تسوية بين العقائد، أو إلى إعفاء من اتباع الرسالة التي بلغها الوحي. فالإيمان بالله في سياق القرآن ليس إيماناً مجرداً عن رسله وكتبه، واليوم الآخر ليس أمنيةً تعفي الإنسان من الاستجابة للتحق. إنما يظهر صدق الإيمان في قبول هدى الله والعمل بمقتضاه. وقد بين الطبري في تفسيره للآية أن المقصود من أهل تلك الطوائف من آمن بالله والبعث وعمل صالحاً، ثم يأتي سياق المائدة ليجعل إقامة الوحي شرطاً لا يُستغنى عنه بمجرد الانتساب.

الإيمان يبدل المآل

تختم الآية بوعْدٍ يوقظ الرجاء: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. إنها عبارة ترد في القرآن حيث يُذكر مصير من استقام على الإيمان والعمل؛ فبعد أن توجه الإنسان إلى ما يجب أن يصدّق به وما ينبغي أن يعمل، تكشف له أفق العاقبة: ليس طريق الطاعة طريقاً إلى الخوف الدائم، بل إلى أمنٍ يمنحه الله لعباده.

والخوف يتجه غالباً إلى ما يستقبل الإنسان، والحزن يلتفت به إلى ما فاتته أو تركه وراءه. وفي التعبير نفياً لكليهما: لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. وفسّر الطبري ذلك بأهوال القيامة من جهة، وبما خلّفوه من الدنيا من جهة أخرى، حين يعاينون ما أكرمهم الله به من الثواب.

وهذا لا يعني أن المؤمن لا يعرف خوفاً أو حزناً في دنياه؛ فالآية تتحدث عن وعد الله وعاقبة أهله، لا عن إلغاء المشاعر البشرية في طريق الحياة. لكنه وعدٌ يعيد ضبط تلك المشاعر في ضوء النهاية: لا تتحول المخاوف العابرة إلى الحكم الأخير على الإنسان، ولا يكون الفقد الدنيوي آخر ما يراه؛ فهناك لقاءٌ وجزاء، ورحمةٌ وأمن.

وفي ترتيب الآية دلالة أخرى: ﴿أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾. فالإيمان والعمل متلازمان في وصف الطريق إلى الوعد. لا يكفي أن يعلن المرء إيمانه، ثم يجعل حياته مناقضةً له؛ ولا ينفصل العمل الصالح عن الإيمان الذي يوجهه ويمنحه غايته. إنه بناءٌ تتساند فيه المعرفة بالله، واليقين بالحساب، والعمل الذي يشهد على صدق اليقين.

خلاصة المحطة: لا يغني الاسم عن مقتضى الإيمان

تُكَلِّمُ المائدة ما رأيته في البقرة: هناك حَذَرُ القرآن من الوقوف عند دعوى الإيمان، وهنا يضع الإيمان والعمل في سياق الحديث عن جماعاتٍ دينيةٍ متعددة. في الموضعين يردُّنا القرآن من الاسم إلى الحقيقة، ومن الادعاء إلى ما يصدِّقه، ومن حاضر الدنيا إلى المال عند الله.

لكن المائدة تضيف معنىً واضحاً: لا يفهم الوعد بالأمن والحزن بمعزلٍ عن إقامة الوحي والاستجابة لرسالة الله. فالإيمان باليوم الآخر ليس مظلةً عامةً يتساوى تحتها كل انتساب، بل عهدٌ يقتضي اتباع الحق الذي أقامه الله حجةً على عباده. ومن صدق إيمانه وعمل صالحاً، فله وعدٌ لا يملكه الناس ولا يسلبونه: ألا يكون الخوف والحزن خاتمة أمره.

ومن المائدة تنتقل إلى التوبة، حيث تتصل العبارة بعمارة المساجد، وبالمفاضلة بين خدمةٍ ظاهرة وإيمانٍ وجهاد، وبكشف الفارق بين المؤمن الصادق ومن يتثاقل عن واجبه.

الفصل الخامس

التوبة: الإيمان الذي يعمر المسجد ويمتحن الموقف

في سورة التوبة، ينتقل الإيمان بالله واليوم الآخر بين مشاهد شتى: المسجد، وخدمة الحجيج، والجهاد، والاستئذان عن الواجب، والإنفاق في سبيل الله. وليس تكرار هذا الاقتران فيها تكراراً لموعظة واحدة؛ ففي كل موضع يكشف القرآن وجهاً من الصلة بين العقيدة والعمل، وبين ما يعلنه الإنسان وما يختاره حين يُمتحن.

1. من يعمر بيوت الله؟

يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

[التوبة: 18]

تأتي الآية بعد نفي أن تكون عمارة المسجد الحرام، مع الشهادة بالكفر، صفةً تجعل صاحبها كمن آمن وعمل لله. ثم تحدد ملامح عمارة المساجد بحقيقتها: الإيمان بالله واليوم الآخر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وانخساع من الله.

فالعمارة ليست بناء الجدران وحده، وإن كان البناء من صورها؛ إنها صلةٌ دائمة بالله، تتجدد بالصلاة، وتتجلى في أداء الحقوق، ويحررها الإيمان من الخشية التي تصرف صاحبها عن طاعة ربه. وقد فسّر الطبري الإيمان في الآية بتوحيد الله والتصديق بالبعث، وقرأ بقية الصفات بوصفها أعمالاً تقيم هذه الصلة في حياة المؤمن.

وتلفت النظر خاتمة الآية: ﴿فَعَسَىٰ أَوَّلُكَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾. فالإنسان لا يمنح نفسه الهداية لمجرد أنه انتسب إلى مكانٍ مقدس أو شارك في عمارته؛ إنما يتوجه إلى الله بعبادةٍ وعملٍ وخشية، ويرجو أن يكون من المهتدين. وهكذا لا تتحول عمارة المسجد إلى زينةٍ منفصلة عن أخلاق من يعمره، ولا تصبح خدمته شهادةً مكتملة الصلاح ما لم تصحبها استقامة القلب والعمل.

2. سقاية الحاج والإيمان والجهاد

ثم تطرح السورة سؤالها:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

[التوبة: 19]

لا تنتقص الآية من شأن سقاية الحاج ولا من خدمة المسجد الحرام؛ لكنها ترفض أن تُجعل الأعمال ذات المكانة الاجتماعية بديلاً عن الإيمان والجهاد، أو أن يُسوَّى بينها وبين ما يقوم على التصديق بالله واليوم الآخر والتضحية في سبيله. وقد أورد المفسرون في سياق الآية اختلافاً في المفاضلة بين السقاية والعمارة والجهاد؛ فجاء الرد القرآني يبين أن هذه الأعمال لا تتساوى عند الله من حيث المنزلة لمجرد شرف صورتها.

إنها تميّز بين شرف العمل في ظاهره وبين موقعه من الإيمان والتكليف. فقد تكون الخدمة عظيمة النفع، ويظل لها فضلها؛ لكن لا يصح أن تحجب عن المرء ما وراءها من واجب، أو تمنحه حصانةً من سؤال الإيمان والعمل. فالإيمان بالله واليوم الآخر يضع الأعمال في ميزانها: ما الذي قُصد بها؟ وما الواجب الذي نهض به صاحبها؟ وأي تضحية احتاجها الحق منه؟

ثم تتبع الآية آية تؤكد منزلة الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، فتجعل الفلاح ثمرة للإيمان والعمل المتحمل للتبعة، لا للألقاب والمنازل الاجتماعية وحدها.

3. آية القتال في سياقها

وفي السياق نفسه ترد الآية:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

[التوبة: 29]

هذه آية حكم وتشريع في شأن القتال والجزية في علاقة جماعة المسلمين بمن أوتوا الكتاب، لا عبارة منفصلة عن سياقها القانوني والتاريخي، ولا وصف يجوز أن يُسقط على كل فردٍ من أهل الكتاب في كل زمان. والآية نفسها تجمع أوصافاً متتابعة وتبين غايةً تشريعية؛ لذلك ينبغي أن تُقرأ بكاملها، وفي سياق السورة وأحكامها، لا أن تُجتزأ منها جملةً لتسويغ عدوانٍ فردي أو موقفٍ مطلق تجاه الناس. والطبري يفسرها بوصفها خطاباً للمؤمنين في شأن قتال فئةٍ من أهل الكتاب ضمن الحكم الذي تحتّمه الآية بأداء الجزية.

وموضعها في هذا الكتاب يبيّن أن ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر قد يأتي في مقام التمييز العقدي، لا في مقام تعداد فضائل المؤمنين فحسب. فالقرآن يجعل الإيمان أصلاً في ميزان الدين، ويربطه بالتصديق بالله واليوم الآخر، وبقبول ما شرعه الله ورسوله. أما تنزيل حكم القتال على الوقائع وتعيين شروطه وأطرافه وسلطته، فله بابه الفقهي والسياقي، ولا يُستخرج بمجرد اقتطاع ألفاظ الآية من نظامها.

4. الإيمان وموقف الإنسان عند الاستنفار

ثم تعود السورة إلى تمييز الصادق من المتردد في موقف الاستنفار:

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

[التوبة: 44]

ويليها:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي
رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾

[التوبة: 45]

تصف الآياتان حال جماعة استنفروا، وتكشفان الفرق بين من يحمل إيمانه على الاستعداد للبذل، ومن يطلب التخلف متردداً شاكاً. فالمؤمن هنا لا ينظر إلى الواجب من زاوية الكلفة العاجلة وحدها؛ الإيمان باليوم الآخر يوسع أفق الحساب، ويجعل بذل المال والنفس جزءاً من موقفٍ يراه صاحبه أبعد من مكسب الدنيا وخسارتها.

أما الآية التالية فتربط الاستئذان المذموم باضطراب القلب والريب: ﴿وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ثم تصف أثر هذا الريب: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾. ليس كل استئذانٍ للتخلف مذمومًا؛ فالسورة نفسها تذكر أهل الأعدار في مواضع أخرى. إنما السياق هنا يتناول من يطلب القعود من غير عذرٍ بين، وتكشف الآيات أن الشك في موقفه. وقد ربط الطبري هذا الموضع بمن يستأذن في التخلف عن الجهاد بلا عذر، ويميّز بين حال المؤمن المتقي وحال المتردد في إيمانه.

وتختتم الآية 44 بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾. فالناس قد يرون الحركة الظاهرة، وقد يسمعون العذر المعلن، لكن الله يعلم حقيقة القلب وما يضمره صاحبه. ويأتي ذكر الآخرة لينح هذا العلم معناه الكامل: ما خفي اليوم لا يضيع، وما التبس على الناس ينكشف عند الله.

5. الإنفاق قربةٌ لا غرامة

وبعد أن عرضت السورة أحوالاً مختلفةً من الأعراب، قالت:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ
وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ﴾

[التوبة: 99]

بعد وصف من ينظر إلى النفقة على أنها غُرمٌ أو عبء، تذكر السورة فريقاً من الأعراب يراها قرى إلى الله، ويرجو دعاء الرسول لهم. وهنا لا يبدل الإيمان مقدار النفقة وحده، بل يبدل معناها في نفس صاحبها: ما يخرج به لم يعد مალًا ينتقص من يده، بل باباً يتقرب به إلى الله.

وتؤكد الآية ذلك بصيغةٍ جامعة: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾. كأن القرآن يرفع ما ظنوه خسارةً إلى مقام القربة، ويكشف لهم أن ما يُبدل في سبيل الله لا ينقطع أثره عند خروج المال من اليد. الإيمان بالله يردّ العطاء إلى المنعم، والإيمان باليوم الآخر يفتح له أفق الجزاء.

ثم تأتي الرحمة في ختام الآية: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، بعد ذكر القربة، لا منفصلةً عنها. ويتلو ذلك اسماً المغفرة والرحمة؛ فالمؤمن يعمل ويرجو، والله يقبل ويغفر ويرحم. وقد أشار الطبري إلى أن هؤلاء يتخذون ما ينفقون قربةً عند الله، وأن «صلوات الرسول» دعاؤه لهم.

خلاصة المحطة: الإيمان يغيّر قيمة الفعل

تجمع سورة التوبة بين أعمالٍ تتفاوت صورها ومواطنها: عمارة المسجد، وسقاية الحاج، والجهاد، والاستجابة للاستنفار، والإنفاق. وفي كل مشهدٍ يعيد الإيمان بالله واليوم الآخر ترتيب القيمة: لا تُغني الخدمة عن الإيمان، ولا تساوي المظاهر التضحيات عند الله، ولا تضيع النفقة الصادقة، ولا يستوي المتردد بمن يبذل عن يقين.

والسورة، مع شدة خطابها في مواضع، لا تحو الفروق بين الناس؛ فقد بدأت في هذا الباب بصفات من يعمرّون المساجد بحقها، ثم ذكرت في خاتمته ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ﴾. إنها تعلّم القارئ أن ينظر إلى المواقف والأعمال، وألا يجعل الانتساب وحده برهاناً على الصدق أو التهمة.

وفي السورة التالية، النور، يظهر الإيمان بالله واليوم الآخر في موضعٍ من مواضع إنفاذ الحكم، حيث يواجه المجتمع اختبار العاطفة والعدل.

الفصل السادس

النور: حين يختبر الإيمان العدل

في سورة النور، يرد الإيمان بالله واليوم الآخر في سياق حدٍّ شرعي، في موضع تمتحن فيه الجماعة المسلمة قدرتها على إقامة الحكم من غير أن تستبدل به الهوى، ومن غير أن تجعل العقوبة مجالاً للتشفي. يقول الله تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[النور: 2]

لا تأتي الآية منفردة عن بنية السورة؛ فهي تبدأ بإعلان أن هذه سورة أنزلها الله وفرضها، ثم تذكر حكم الزنى، وتنبهه بالنهي عن رمي المحصنات من غير بينة، وبأحكام اللعان بين الزوجين. وهكذا لا يعرض القرآن جريمة ثم يترك المجتمع لأهوائه؛ بل يحيط الواقعة بأحكام تحد من الفوضى، وتحفظ الأعراض من أن تكون ميداناً للتهمة والتشهير.

1. ما الرأفة التي تنهى عنها الآية؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ يتصل بالحكم الذي سبق ذكره؛ فلا يجوز أن تتحول الشفقة إلى تعطيل لما شرعه الله، أو إلى تغيير الحكم بدافع عاطفي يناقض ما أمر به. وهذا هو الوجه الذي يذكره عدد من المفسرين في تفسير الآية.

لكن الآية لا تجعل القلب قاسياً، ولا تبيح الإهانة والتشفي. إنها تضع حداً للفوضى في تطبيق الحكم، لا إذناً بتجاوز العدل. والفارق كبير بين رأفة تحمل صاحبها على تعطيل حكم الله، ورحمة تمنع الإنسان من الظلم والإيذاء والتعدي. فالرحمة لا تعني إسقاط كل حكم، كما أن إقامة الحكم لا تعني إهدار كرامة الإنسان أو فتح باب الاعتداء عليه.

والآية تتحدث عن إجراء تشريعي محدد، لا عن تفويض للأفراد كي يعاقبوا من يهتمونه. وما يترتب على هذا الحكم من شروط الإثبات، وسلطة التنفيذ، وسائر التفصيلات، له بابه في الفقه والقضاء. ويزيد سياق السورة هذا المعنى وضوحاً: فالآيات التالية تشدد في حماية الأعراض، وتجعل اتهام المحصنات من غير أربعة شهداء جريمة لها حكمها. فليس للمجتمع أن يجعل الظن دليلاً، ولا للناس أن يطلقوا ألسنتهم ثم يتركوا المتهم وحيداً أمام التشهير.

2. الإيمان حاضرٌ عند تنفيذ الحكم

تربط الآية النهي عن الرأفة المفضية إلى تعطيل الحكم بالإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. وهنا يتجلى وجهٌ دقيق من حضور الآخرة في حياة المؤمن: الحساب لا ينتظر الحكم على المذنب وحده؛ فالحاكم، والشاهد، والمجتمع، كلٌّ مسؤول عن موقفه.

قد يظن المرء أن الرحمة إنما تكون في تخفيف العقوبة أو تركها؛ لكن السورة تضع أمامه نوعاً آخر من المسؤولية: ألا يتلاعب الإنسان بحكم الله وفق قرب المذنب أو مكانته، وألا يقيم العقوبة على ضعيفٍ ويعطلها عن قوي، وألا يجعل رأفته الانتقائية باباً للظلم. فالإيمان باليوم الآخر يراقب هنا طرفي المسألة: الجاني الذي خالف، ومن يتولى الحكم ويسأل عن عدله.

إنها ليست دعوةً إلى تغليب العقوبة في كل حال، ولا إلى إنكار التوبة؛ فسورة النور نفسها تفتح باب الإصلاح في سياق أحكام القذف، وتختتم آياتٍ منها بالتذكير بأن الله توابٌ حكيم. وإنما تتحدث الآية عن حكمٍ شرعي بعد قيام موجب، وتنهى عن نقضه بالرأفة التي تعطل ما أمر الله به. أما ثبوت الجريمة وشروطه، وما يتصل بالتوبة والستر والإقرار والرجوع عنه، فمسائل لا يصح اختزالها في اقتطاع جملة من الآية.

3. حضور الطائفة: الحكم شأنٌ عام منضبط

وتختتم الآية بقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. لا تعرض العقوبة في خفاءٍ ملتبس، ولا تجعلها شأنًا يتولاه صاحب غضبٍ منفرد؛ بل تذكر حضور طائفة من المؤمنين. وقد اختلف المفسرون في أقل ما يصدق عليه اسم الطائفة، وذكر الطبري أقوالاً متعددة في عددها، مستحباً ألا يقل الحاضرون عن أربعة خروجاً من الخلاف.

وفي ذكر حضور المؤمنين معنى يتجاوز مجرد الرؤية: إن الحكم يُقام في إطارٍ تشهد به الجماعة، لا في إطار انتقامٍ شخصي. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن في الشهود اتعاضاً للحاضرين، بينما نُقل أيضاً ما يؤكد أن المقصود ليس الفضيحة، بل حضور الحكم على وجهه.

لكن ذلك لا يعني أن يتحول الحضور إلى شماتةٍ أو استباحةٍ لعرض المعاقب؛ فالمؤمن الذي يشهد الحكم ينبغي أن يتذكر أنه يقف أمام حدٍّ من حدود الله، وأنه هو نفسه عبدٌ محتاج إلى المغفرة. ومشهد العقوبة، إن أريد له أن يردع، فلا ينبغي أن يصير مشهداً لإذلال البشر وإشباع نزعة القسوة.

خلاصة المحطة: الإيمان يضبط العدل ولا يلغيه

تضع آية النور الإيمان بالله واليوم الآخر عند نقطةٍ بالغة الحساسية: لحظة إنفاذ الحكم. فتذكّر المؤمن أن عاطفته لا تمنحه حق تعطيل حكم الله، كما لا تمنحه سلطته حق التجاوز والظلم. والآخرة حاضرةٌ في الجانبين: من خالف الحكم مسؤول، ومن أقامه مسؤول، ومن اتهم بغير بينة مسؤول.

وهكذا لا يكون الإيمان باليوم الآخر دعوةً إلى التراخي عن العدل، ولا ذريعةً إلى القسوة؛ بل ميزاناً يردّ الحكم إلى حدوده، ويمنع أن تنفلت الرأفة إلى محاباةٍ أو تنفلت العقوبة إلى تشفٍّ. وفي موضعٍ تتعلّق فيه الآية بعرض الإنسان وحياته الاجتماعية، تذكّر السورة أن الشريعة تقيم الحكم وتحرس المجتمع من التهمة والعدوان معاً.

ومن النور ننتقل إلى المجادلة، حيث يرافق الإيمان صاحبه في ضبط الولاء والموقف، حتى حين تكون رابطة القرابة أقوى ما يستدعي العاطفة.

الفصل السابع

المجادلة: حين يُمتحن الإيمان برابطة القرابة

تختم سورة المجادلة آياتها بصورةٍ تمتحن القلب في أقرب دوائره: الأسرة والعشيرة. يقول الله تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة: 22]

نتصل الآية بما قبلها؛ إذ تذكر السورة قوماً تولّوا أناساً غضب الله عليهم، ثم تصف الذين لا يجعلون المودة والولاء لمن يحادّ الله ورسوله رابطةً تغلب إيمانهم. وقد فسّر الطبري المحادّة بالمخالفة والمشاقة لأمر الله ونهيه، ووضع الآية في سياق الحديث عن من تولّى أولئك الذين غضب الله عليهم.

1. ليس كل مخالفٍ محاداً

لا بد من التوقف عند وصف الآية: ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. فهي لا تتحدث عن كل إنسانٍ يخالف المؤمن في معتقده، ولا تأمر بقطع الرحم أو إساءة المعاملة لمجرد اختلاف الدين. إنها تتحدث عن المحادّة: موقفٌ يتجه إلى معاداة الله ورسوله ومخالفة أمرهما، ويصبح الولاء فيه مناصرةً لهذا الموقف.

ولهذا لا يصح أن تُقرأ الآية وكأنها تلغي برّ الأب، أو صلة الأخ، أو حق القرابة؛ فهذه الحقوق باقية في مواضعها، ما لم تتحول القرابة إلى رابطةٍ تحمل الإنسان على نصرة الباطل أو الوقوف مع من يحادّ الله ورسوله. وستتضح هذه الموازنة أكثر حين نضم إلى هذا الموضع آيات سورة الممتحنة التي تبين أن الله لا ينهى عن البر والقسط مع من لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم.

2. حين تتعارض القرابة مع الولاء للحق

تذكر الآية الأبناء والآباء والإخوان والعشيرة، لا لتصغر شأن روابطهم، بل لتبين شدة الامتحان حين تتعارض المحبة القريبة مع مقتضى الإيمان. فقد يكون الإنسان أضعف أمام القريب منه أمام الغريب؛ فالقريب يستند إلى تاريخٍ مشترك، وذكرياتٍ ومصالح، وربما إلى خوفٍ من خسارته أو جرحه. لكن الإيمان بالله واليوم الآخر يضع لهذه الروابط ميزاناً أعلى: لا تُتخذ القرابة سبباً لنصرة ما يعلم المؤمن أنه محادٌ لله ورسوله.

وهنا لا يكون الاختبار في مجرد الشعور الفطري، فالمرء لا يُنتزع منه حب أبيه أو رحمته بانه. إنما يقع الامتحان حين يُطلب منه أن يجعل هذا الحب حجةً لتأييد موقفٍ باطل، أو أن يبيع الحق وفاءً لضغط الأسرة والعشيرة. الإيمان لا يطفئ العاطفة، لكنه يمنعها من أن تصبح قاضياً على الحق.

ولهذا فالموقف الذي تصفه الآية ليس قسوةً على القريب لذاته، بل ثباتٌ على مبدأ لا يجوز أن يُسخر لخدمة المحادة. وقد يقتضي الثبات أن يرفض المؤمن نصره قريبه في الباطل، مع بقاء ما له من حقوقٍ في البر والمعاملة الحسنة.

3. ما يكتبه الله في القلب

بعد وصف هذا الثبات، لا تعرض الآية المؤمنين كأنهم تركوا وحدهم في صراع بارد مع روابطهم؛ بل تقول: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾. فالثبات ليس مجرد جهدٍ بشري، بل توفيقٌ من الله وثبوتٌ منه. وما يختاره المؤمن لله يزيد الإيمان رسوخاً في قلبه، ويؤيده الله بما يقويه على حمل هذا الاختبار.

ثم تنتقل الآية من تثبيت القلب إلى ماله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. هنا يحضر اليوم الآخر بوضوح: قد يخسر الإنسان رضا قريبٍ أو تأييده حين يرفض أن ينصره في المحادة، لكن هذه الخسارة ليست آخر الحكاية؛ وراءها لقاءٌ وجزاء، ورضوانٌ من الله أعظم من رضا البشر.

وتبلغ الآية ذروتها في قولها: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. فالإيمان الذي اختبره ضغط القرابة ينتهي إلى علاقةٍ أعمق: رضا الله عن عباده، ورضاهم بما آتاهم. لا يعود معنى النجاة عندهم أن يرضى عنهم كل قريب أو عشيرة؛ بل أن يرضى الله عنهم، وأن يرضوا بما اختاره لهم من الحق والجزاء.

4. حزب الله: رابطةٌ أوسع من رابطة العشيرة

تختتم الآية بتسميتهم: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾، ثم تعلن: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فالإنسان ينتسب إلى أسرته وعشيرته، لكنه ليس أسيراً لكل ما يصدر عنهما. هناك رابطةٌ أوسع، تقوم على الإيمان بالله واليوم الآخر، وتجمع أصحابها على الحق والطاعة.

وهذا الانتماء لا يبيح للإنسان ظلم من خالفه، ولا يمنحه حق الترفع على الناس؛ بل يحمله مسؤوليةً أشد أمام الله. فـ«حزب الله» في الآية ليس لقباً يُرفع للمفاخرة، بل وصفٌ لأناسٍ ثبت الإيمان في قلوبهم، وأيدهم الله، وانتهى بهم الطريق إلى رضوانه وفلاحه.

خلاصة المحطة: الإيمان يحرر الحب من نصره الباطل

تعرض المجادلة امتحاناً بالغ الدقة: أن يحب المؤمن أقرباءه، من غير أن يجعل الحب حجةً لموالاة من يحادّ الله ورسوله. فالقرآن لا ينتزع الرحمة من القلب، بل يمنعها من أن تنقلب إلى نصره للباطل. ويذكر بأن نهاية الإنسان ليست في رضا العائلة أو غضبها، بل في الوقوف بين يدي الله.

ومن ثم نتصل الآية اتصالاً عميقاً بموضوع الكتاب: الإيمان بالله يحدد جهة الولاء، والإيمان باليوم الآخر يمنح الإنسان شجاعة احتمال كلفة الاختيار؛ إذ يعرف أن ما يخسره في موقفٍ عابر لا يقارن بما يرجوه من رضوان الله.

ومن المجادلة ننتقل إلى الطلاق، حيث يظهر الإيمان في لحظةٍ شديدة الخصوصية بين زوجين افترق طريقتهما: عند الشهادة، والرجعة، والفراق بالمعروف.

الفصل الثامن

الطلاق: الإيمان حاضر عند الفراق

قد يبدو الطلاق شأنًا خاصًا بين زوجين، لكن سورة الطلاق تكشف ما يترتب عليه من حقوق ومسؤوليات، وتضع له حدودًا تضبطه حين تشتد الخصومة. وفي قلب هذه الأحكام يأتي الإيمان بالله واليوم الآخر واعظًا لمن قد يغلبه غضبه أو مصلحته:

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

[الطلاق: 2]

1. طريقتان، وكلاهما محكوم بالمعروف

يقول تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. فالرجعة والفراق، على اختلافهما، يجمعهما قيد واحد: المعروف. لا يجوز أن تتحول الرجعة إلى وسيلة للإضرار، ولا أن يصبح الفراق ثأرًا من المرأة أو انتقامًا من حقوقها. وحتى حين تنتهي العلاقة، يبقى للإنسان واجب العدل.

والتعبير يردّ القرار إلى قيمٍ أعلى من الانفعال: إذا اختار الزوج الإمساك، فليكن على وجهٍ كريمٍ، وإذا اختار الفراق، فليكن من غير ظلمٍ ولا مضارة. لا تجعل الخصومة ما بينهما مبرراً لإيذاءٍ جديد، ولا تجعل نهاية الزواج نهايةً للحقوق.

2. الشهادة تحفظ الحق من النسيان والإنكار

ثم تأمر الآية بالإشهاد وإقامة الشهادة لله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾. فالأحداث التي تقع في لحظات النزاع قد يختلف الناس في روايتها بعد حين، وقد يدخلها الإنكار أو الانتقاء أو المصلحة. والشهادة تضبط ما وقع، وتردّ الحقوق إلى الوضوح.

لكن الآية لا تكتفي بحضور الشهود، بل تأمرهم أن يقيموا الشهادة لله؛ أي أن يؤدوها بالحق، من غير زيادةٍ ولا نقص، وألا يحرفوها لمجاملة قريبٍ أو نصرة صاحب. وقد شرح السعدي هذا المعنى بأن الشهادة تُؤدّى على وجهها، ابتغاء وجه الله، من غير مراعاة قرابةٍ أو صحبة.

وهكذا يحضر الإيمان بالله في أمانة الشاهد، ويحضر الإيمان باليوم الآخر في تذكيره بأن الشهادة نفسها عملٌ يُحاسب عليه. لا ينتهي واجبه حين يغادر مجلس الناس؛ فالله يعلم ما قال، وما كتم، وما غيّر.

3. الإيمان يعظ الإنسان في موضع لا يراه الناس

بعد هذه الأحكام تقول الآية: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾. فالتوجيه ليس تفصيلاً إدارياً في شؤون الأسرة؛ إنه موعظة لمن
يستحضر أن وراء قراره حكم الله، وأن وراء حياته يوماً تُردّ فيه المظالم.

والطلاق من المواطن التي قد يغيب فيها الإنصاف تحت ضغط الغضب أو الجرح
أو الرغبة في الانتقام. قد يظن أحد الطرفين أنه يستطيع استغلال غموض الوقائع،
أو أن الطرف الآخر أضعف من أن يطالب بحقه. لكن الإيمان باليوم الآخر
يعيد المشهد إلى حقيقته: ليس الحق ما يستطيع المرء أن ينتزعه بقوته، ولا
العدل ما يقرره الغاضب لنفسه؛ فهناك علم الله وحكمه.

وقد فسر الطبري هذه الموعظة بأنها تشمل ما أمر الله به من أحكام الطلاق وما
يجب لبعض الزوجين على الآخر عند الإمساك أو الفراق.

4. من ضبط الفراق إلى وعد المخرج

ثم نتصل الآية بوعد التقوى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾. بعد تفصيل
يتناول العدة والرجعة والفراق والشهادة، تأتي هذه الجملة لتردّ الإنسان إلى الأصل
الذي يسند تلك الأحكام كلها: اتق الله، ولا تتجاوز حدوده، ولو ضاق بك
الموقف.

ولا ينبغي أن يُحتزل وعد المخرج في تصورٍ واحدٍ لطريقة الفرج أو توقيته؛ فالآية لا تعين للإنسان كيف يأتيه المخرج ولا متى، لكنها تؤكد أن التقوى لا تسدّ الطريق على صاحبها، وأن وراء ما يستعصي عليه فرجاً يقدره الله. وفي سياق الطلاق خصوصاً، لا تكون التقوى مجرد تجنبٍ للحرام، بل عدلاً عند الفراق، وحفظاً للحقوق، وأمانةً في الشهادة.

خلاصة المحطة: حتى نهاية الزواج لها أدبٌ وحق

تختم سورة الطلاق دائرة المواضع الصريحة التي نتصل فيها عبارة الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد بلغنا فيها إلى علاقةٍ خاصة، تشابك فيها الحقوق والعواطف والذكريات. فتعلّمنا الآية أن الإيمان لا يُختبر في العبادة وحدها، ولا في المواقف العامة وحدها؛ يُختبر أيضاً في لحظة الانفصال، حين يستطيع الإنسان أن يضرّ ولا يراه الناس، أو أن ينصف مع أنه مجروح.

في هذا الموضع، يجعل الإيمان بالله واليوم الآخر من المعروف حداً للطرفين، ومن الشهادة أمانةً، ومن التقوى طريقاً إلى المخرج. فالعلاقة قد تنتهي، لكن مسؤولية الإنسان أمام الله لا تنتهي معها.

ما بعد المواضع الصريحة: من الإيمان إلى الرجاء

وبهذا نكون قد مررنا بالسور الثماني التي جاء فيها الاقتران الصريح بالإيمان بالله واليوم الآخر: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والتوبة، والنور، والمجادلة، والطلاق. ويبقى أن نوسّع القراءة قليلاً، لا بإضافة مواضع إلى هذا الحصر، بل بالتوقف عند آياتٍ تلتقي معه في المعنى: آياتٍ تذكر رجاء الله واليوم الآخر، أو عبادة الله ورجاء اليوم الآخر.

في الأحزاب، يرتبط الرجاء بالله واليوم الآخر بالاعتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وفي الممتحنة، يتصل هذا الرجاء بالثبات على الموقف؛ وفي العنكبوت، يقترن الأمر بعبادة الله برجاء اليوم الآخر. وهذه الآيات ستساعدنا على رؤية الدائرة الأوسع: كيف يمتد أثر الإيمان، في مواضعه الصريحة والقريبة منها، من الاعتقاد إلى الاقتداء والموقف والعبادة.

الفصل التاسع

حين يصير الإيمان رجاءً: آياتٌ تفتح دائرة المعنى

بعد تتبّع المواضع التي يصرّح فيها القرآن بالإيمان بالله واليوم الآخر، يحسن أن نقف عند ثلاث آياتٍ قريبةٍ منها في الدلالة. فهي لا تستخدم صيغة «يؤمن بالله واليوم الآخر»، بل تتحدث عن عبادة الله ورجاء اليوم الآخر، أو عن رجاء الله واليوم الآخر. وهذا التمييز مهم: نضمّها إلى القراءة بوصفها شواهدَ مكّلة، لا نخلطها بحصر العبارة الصريحة.

1. العنكبوت: عبادة الله ورجاء اليوم الآخر

في حديث شعيب عليه السلام إلى قومه مدين، يقول تعالى:

﴿وَالِىَ مَدِيْنٍ اٰخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْاٰخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ﴾

[العنكبوت: 36]

تجمع الآية بين العبادة والرجاء، ثم تنتقل مباشرةً إلى النهي عن الفساد في الأرض. ليس رجاء اليوم الآخر انتظاراً سلبياً لنهاية الحياة، بل أفقٌ يحكم العمل فيها: اعبدوا الله، وتوقعوا جزاء ذلك اليوم، ولا تفسدوا في الأرض. وقد فسّر الطبري رجاء اليوم الآخر هنا برجاء جزائه، وربط النهي عن الفساد بالإثثار من معصية الله والإقامة عليها.

يتضح بذلك أن الرجاء القرآني ليس أمنيةً منفصلةً عن السلوك. فمن يرجو الجزاء يراجع ما يصنع، ويعرف أن علاقته بالله لا تنحصر في شعائر يؤديها، بل تمتد إلى أثره في الأرض. عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يثران مسؤوليةً عن العمران، ويمنعان أن يستسهل الإنسان الفساد بحجة أنه بعيدٌ عن حسابه.

وهذه الآية تضع أمامنا صورةً متكاملة: الوجهة إلى الله، والأمل فيما عنده، والاستقامة في الأرض. فالإيمان الذي لا يردع عن الإفساد لم يبلغ بعد أثره الكامل في الحياة؛ إذ كيف يرجو الإنسان جزاء الله، ثم يصرّ على ما يفسد أرضه وعلاقاته؟

2. الأحزاب: الرجاء الذي يدفع إلى الاقتداء

وفي سورة الأحزاب، في سياق الشدة والخوف يوم الأحزاب، يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾
[الأحزاب: 21]

تصل الآية رجاء الله واليوم الآخر بالاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقرن ذلك بكثرة ذكر الله. في ساعة اضطرب فيها الموقف، لم يكن الرجاء معنى يخفف عن النفس فحسب؛ بل صار باعثاً على أن يرى المؤمن في الرسول قدوة في الثبات والصبر وحسن التوجه إلى الله. وقد ذكر الطبري أن في الآية عتاباً للمتخلفين عن رسول الله وعسكره، ودعوة إلى الاقتداء به؛ وربط الرجاء في الله وثوابه بالاستعداد لمرافقته وعدم الرغبة بالنفس عنه.

وليس معنى الاقتداء أن ينسخ كل إنسان ظروف النبي صلى الله عليه وسلم وظروف أصحابه، بل أن يتعلم من هديه كيف يتصرف حين تحيط به الشدة: يثبت من غير تهور، ويصبر من غير استسلام، ويرجو الفرج من الله من غير أن يهجر الأسباب. فالقدوة ليست صورةً معلقة في الذاكرة، بل طريقٌ يُهتدى به عند الفعل.

واللافت أن الآية لم تذكر الرجاء وحده، بل أتبعته بقوله: ﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾. فالرجاء الذي لا يجدد صلته بالله قد يتبدد أمام الخوف؛ أما ذكر الله فيرد القلب إلى مصدر الطمأنينة، ويعينه على أن يرى الموقف في أفقٍ أوسع من لحظته. وهكذا تجتمع في الآية ثلاثة معانٍ: أملٌ في الله واليوم الآخر، وذكرٌ متصل، واقتداءٌ يتحول إلى سلوك.

3. الممتحنة: الاقتداء والثبات مع حفظ ميزان المعاملة

وفي سورة الممتحنة، يأتي التعبير نفسه في سياق التأسي بإبراهيم عليه السلام والذين معه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾
[الممتحنة: 6]

السياق يتناول موقف إبراهيم والذين معه من الشرك والبراءة من عبادة غير الله، ويجعل ثباتهم موضع اقتداء لمن يرجو الله واليوم الآخر. فالرجاء هنا متصل بما عند الله من لقاء وثواب، وهو ما يعين المؤمن على أن يجعل ولاءه الديني تابعاً للحق، لا لضغط البيئة أو العصبية. وقد فسر الطبري التأسي بأنه الاقتداء بإبراهيم والذين معه، وفسر الرجاء برضاء لقاء الله وثوابه والنجاة في اليوم الآخر.

لكن قراءة هذا الموضع تقتضي أن نقرأ السورة كلها. فبعد بيان الموقف من المحادة الدينية، تقرر السورة أن الله لا ينهى عن البر والقسط مع الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم، وإنما ينهى عن موالاة من قاتل وأخرج وظاهر على الإخراج. وبهذا تفرق السورة بين الثبات على العقيدة، وبين العدل والإحسان في التعامل مع المسلمين. فلا يتحول التأسي بإبراهيم إلى قسوة على الناس، ولا يتحول البر إلى تنازل عن أصل الإيمان.

وخاتمة الآية تردّ الأمر إلى حقيقة الغنى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. فالله غنيُّ عن طاعة عباده، وهم المحتاجون إلى الهداية والرحمة. ليس التأسي منةً يقدمها المؤمن إلى الله، بل طريق نفع يعود عليه، والله محمودٌ في ذاته، سواء أطاعه الناس أم أعرضوا.

خلاصة الشواهد المكّلة

تكشف هذه الآيات الثلاث عن دوائرٍ تتسع بها دلالة الإيمان بالله واليوم الآخر:

- في العنكبوت، يثمر رجاء اليوم الآخر عبادةً واستقامةً ونهيًا عن الفساد.
- في الأحزاب، يدفع الرجاء إلى الاقتداء بالثبات والذكر في ساعة الشدة.
- في الممتحنة، يعين الرجاء على الثبات على الحق، مع بقاء البر والقسط في موضعهما.

وهكذا لا يردّنا الرجاء إلى الآخرة بعيداً عن الأرض، بل يعيدنا إليها بوعيٍّ أشدّ: نعبد الله، ونقاوم الفساد، ونقتدي برسوله، ونثبت على الحق، ونعدل مع الناس. فالיום الآخر ليس نهاية العمل فقط؛ إنه نورٌ يهدي العمل في الطريق إليه.

خاتمة الباب

من العقيدة إلى الضمير

بدأت رحلتنا من سورة البقرة، حيث انكشف الفرق بين دعوى الإيمان وحقيقته، ثم رأينا الإيمان يعرف البرّ، ويحرس الحقوق، ويهذب الإنفاق. وفي آل عمران اتصل بالعبادة والمسؤولية والمسارة إلى الخير؛ وفي النساء ضبط القصد والتحكم والعلم، وفي المائدة اقترن بالإيمان والعمل والوعد بالأمن. ثم ظهر في التوبة في عمارة المسجد والإنفاق والموقف من الواجب، وفي النور عند إقامة الحكم، وفي المجادلة حين تمتحن القرابة الولاء، وفي الطلاق حين يحتاج الفراق إلى عدلٍ ومعروف.

وأكمل هذه المشاهد في معنى واحد: الإيمان بالله واليوم الآخر ليس ركنين يُذكران في التعريف ثم ينفصلان عن حياة الإنسان؛ إنهما أصلا يوجهان نظره وسلوكه. فالإيمان بالله يجعل للحياة مرجعاً أعلى من الهوى، والإيمان باليوم الآخر يجعل للأعمال مآلاً لا تحوه غفلة الناس ولا تبدله أحكامهم.

ولهذا يقرن القرآن هذين الأصلين بمواقف متباينة: صدق القول، وبرّ المحتاج، وأمانة الشهادة، وردّ النزاع، ورعاية الأسرة، والقيام بالواجب، والإحسان إلى الناس. كأن تكرر هذا الاقتران يوقظ سؤالاً واحداً في كل موضع: إذا كنت تؤمن بالله الذي يعلم ما تخفي، وباليوم الذي تُعرض فيه أعمالك، فكيف سيكون قولك وعطاؤك وحكمك ومعاملتك؟

تلك هي ثمرة القراءة: أن نرى الإيمان لا في اللفظ وحده، بل في الإنسان الذي يصنعه؛ إنسانٍ يعلم أنه لله، وأنه راجعٌ إليه، فيمشي في الأرض محاسباً نفسه، راجياً رحمة ربه، حريصاً ألا يلقي الله وقد ظلم أو خان أو أفسد، أو أضاع حقاً كان يستطيع أن يحفظه.